مِثالِيَّة حاتِم الطّائِي
مِن شِعرِه

تاليف

للدكتور

محمد حسن عبد اللطيف

مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنين ـ القاهرة

حـــاتم الطـــائى

(٤٦ ق٠هـ ـ ٥٧٨ م)

نسبـه وحيـــاته :

هو حـاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشـرج الطـائى القحطانى ، أبو عـدى جـواد ، يضـرب به المثـل فى الجـود ، كان من أهل نجد ، ومات فى عـوارض (جبـل فى بلاد طيىء) ٠

وأرخوا وفـاته فى السنة الثامنـة بعد مولد النبى ﷺ(١) ، ويبدو أنه عاش نحو ستين سنة(٢) ٠

نشـــأته :

نشـأ حاتم كـريما ، من حيث ورث الكرم إلى حـد الإسـراف من والدته : عتبـه (بضم العين وسكون التـاء) بنت عفيف بن عمـرو بن أمـرىء القيس(٣) أو غنيـه (بفتح الغين ، وكسـر النون ، وفتح الياء

---

(١) يراجع الأعلام للزركلى : جـ ٢ ص ١٥٠ ، ط٠ بيروت ، وتهذيب ابن عساكر : جـ ٣ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٩ ، وتاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس لحسين الديار بكرى : جـ ١ ص ٢٥٥ ، شرح شواهد المغنى : جـ ١ ، ص ٢٠٨ ٠

(٢) يراجع تاريخ الأدب العربى ، عمر فروخ : جـ ١ ص ١٨٧ ، ط٠ بيروت ٠

(٣) يراجع شعـراء النصرانية فى الجاهلية للويس شيخو : ص ٩٨ ، ط٠ : الآداب ، تهذيب ابن عساكر : جـ ٣ ص ٤٢٨ ، ط٠ بيروت ، وموسوعة الشعر العربى لإيليـا حاوى وآخرين : جـ ١ ص ٥٠١ ، ط٠ الشعب ٠

وتشديدها)(٤) أو عنبه « بكسر العين ، وفتح النون ، وفتح الباء »(٥) .

وأثبت الرواة أن والده كان ممسكا بعض الإمساك وقد مات صغيرا وكفل حاتما جده سعد بن الحشرج .

أولاده : ولد لحاتم : عدى وعبد الله وسفانه (٦) .

مثالية حاتم من شعره

كان فى العرب نزوع إلى الشر ، من سفك للدماء ، واعتداء على الحرمات وشرب للخمر ، ووأد البنات .. الخ .

فهم منغمسون فى أدران الجاهلية ، ولما تكتحل أعينهم بنور الإسلام !

لكن وجد فيهم من جنح عن مرذول عاداتهم وقبيح معتقداتهم ، اتباعا لسواء الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ومن هؤلاء من سموا بالحنفاء ، كأمية بن أبى الصلت وورقة بن نوفل وسواهما ممن كانوا يتعبدون على البقية الباقية من دين إبراهيم ، وهذا الامتداد لدين ابراهيم قد ترك أثار فى العرب ، ومن هذا الأثر حاتم الطائى ، تجلت فى خصال حميدة نعرض لها بعد قليل .

فلم اقتفى حاتم وأمثاله أثر ابراهيم عليه السلام ، حتى ان

---

(٤) الأغانى (تهذيب ابن واصل الحموى) : جـ ٥ ص ١٨٣٨ ، ط. التحرير ، مجمع الأمثال للميدانى : جـ ١ ص ٢٥٤ ، ط بيروت .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة : (تحقيق أحمد شاكر) : جـ ١ ص ٢٤٢ ط. دار المعارف .

(٦) يراجع جـ ١ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، المصدر السابق .

رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام كان أيضا يتعبد قبل البعثة ، على دين ابراهيم ؟

الواضح أن العرب كانوا يتعصبون لإبراهيم وابنه اسماعيل ، ولذا خاطبهم القرآن الكريم فى آيات عديدة ليرقق قلوبهم ويجذبهم إلى الإسلام بأنه نفس منهج أبيكم ابراهيم ، ليكونوا فى تآلف معه ، حسبنا منها :

قول الله تعالى : « **ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** » الآية (الحج : ٧٨ ·

وقوله تعالى : « **واتل عليهم نبأ ابراهيم ·· الآية** » (الشعراء : ٦٩) ·

وقوله تعالى : « **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ··· الآية** » (النحل : ١٢٣) ·

وقوله تعالى : « **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا** » (آل عمران : ٦٨) ·

وقوله تعالى : « **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل ·· الآية** » (آل عمران : ٨٤) ·

وقوله تعالى : « **قولوا آمنا وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم ··· الآية** » (البقرة : ١٣٦) ·

هل كان حاتم حنيفيا حقا ؟

حسبى قبل الإجابة على هذا التساؤل أن أستجيب حاتما أولا ، ثم أجيب بعده ، قال عدى بن حاتم :

« إن حاتما أوصى عند مـوته فقال : إنى أعهـدكم من نفسى بثلاث ، ما خاتلت(٧) جارة لى قط أريدها عن نفسها ، ولا أؤتمنت على أمانة إلا قضيتها ، ولا أتى أحد من قبلى بسـوأة ، أو قال بسـوء »(٨) .

والوصية من المورث للوراثة تكون بمثـابة كنز متروك لهم ، ترجى المحافظة عليـه ، وهـذا أمارة رضـاه عن هـذه الخصال ، ولولا ذلك ما أوصـاهم بها .

وأستوثق لذلك بقول من لا ينطق عن الهـوى ، وهو رسول الله ﷺ لسفانه بنت حـاتم ، حيث : « قالت سفانة لرسـول الله ﷺ حين أسرها المسلمـون :

يا محمـد إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحيـاء العرب فإنى ابنة سيد قـومى . وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجـائع ، ويكسـو العـارى ، ويقـرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السـلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، وأنا ابنة حاتم الطائى .

فقال النبى ﷺ : يا جـارية ، هـذه صفة المؤمنين حقـا ، لو كان أبوك مؤمنـا لترحمنا عليـه ، خلوا عنهـا فإن أباها كان يحب مـكارم الأخـلاق ، والله يحب مكارم الأخـلاق »(٩) .

---

(٧) الختـل : تخادع عن غفـلة ، يراجع جـ ٢ ص ١١٠٠ ، مادة (ختل) لسـان العـرب ، ط دار المعـارف .

(٨) يراجع ص ١٥٧ ديوان حاتم : تحقيق عادل سليمان جمال ، نشر مكتبة الخانجى .

(٩) يراجع جـ ٢ ، ص ٢١٣ : البداية والنهاية لابن كثير ، ط السعادة ١٩٣٢ م ، جـ ٥ ص ٨٣٨ ، الأغاني تهذيب ابن واصل الحموي ، ط التحـرير بمصر .

بهـذه الشهادة نطمئن إلى أن حاتما كان محبـا لمكارم الأخـلاق ، وهـل بعث الله الرسـل إلا بمكارم الأخـلاق ؟ حتى كانت بعثـة النبى محمـد تتمـة لهذه المكارم ، حيث يقول ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخـلاق »(١٠) .

والرسول الكريم بهذه الشهادة لم يك مبالغـا ـ حاشـا لله ـ فما كان عليـه حاتم استجابة لداعى الفطـرة السليمة ، يفعـل حاتم هـذا فى بيئة غارقة فى التيـه ، فما ذلك الذى غير وجهته عن نهج قـومه ؟

لا ريب أن نقـاء الفطـرة هو الذى صرفه عن أدناس قـومه ، وجعله يورد فى أشعاره ألفـاظا وعبـارات تكاد تكون قـرآنية ، ليس هـذا وحسب ، بل إن هـذه الألفـاظ والعبارات تضمنت معـانى دعت إليها الشـرائع السماوية ، وبخاصة الشريعة الإسـلامية ، التى لم يشهـدها ، الأمـر الذى يعضد القول بحنيفيته ، حيث كان ـ فيما أخـال ـ على هدى من النبوات السـابقة ، وبخاصة ـ دين إبراهيم ـ أو كان ممن يستشرفون نور النبـوة الخاتمة التى بشـرت بهـا الكتب السماوية السـابقة فجرت هـذه المعـانى ـ التى سوف نقف عليهـا بعد ـ على لسـانه .

كـاد حـاتم أن يكون مسلمـا

١ ـ لإيمانه بالغيب والبعث ، حيث يقول :

---

(١٠) أو صالح الأخلاق ، فقد روى عن أبى هـريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنما بعثت لأتمم صـالح الأخـلاق) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه البزار ، إلا أنه قال : (لأتمم مكارم الأخـلاق) ، أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب المناقب ـ باب : فى حسن خلقه وحيـائه وحسن معاشرته : ج ٩ ص ١٥ ، ط بيروت .

أما والذى لا يعلم الغيب غيره

ويحيى العظام البيض وهى رميم(١١)

فالشاعر يبرز إيمانه الجازم ، المصحوب بالقسم ، وأسلوب القصر ليلقينا إلى يقنه بعالم الغب وحده فى الشطر الأول ، مما دعانى إلى أن أرجع البصر فى القرآن الكريم للتدليل على أن ما فى عقيدة حاتم - الموروثة عن هدى النبوات السابقة - هو ما جاء به الإسلام بعد ، ليتمم هذه الشرائع . قال الله تعالى :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » (الجن : ٢٦) .

« ولله غيب السموات والأرض .. الآية » (النحل : ٧٧) .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب .. الآية » (آل عمران : ١٧٩)

وغير ذلك كثير من الآيات التى تقصر علم الغيب على الله وحده .

أما الشطر الثانى من البيت فإنه يدل على إيمانه بالبعث ، كما تضمنت هذا المعنى الآية الكريمة :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

يعتقد حاتم هذا فى بيئة تنكر البعث ، حتى فى زمن النبوة ، حيث سجل القرآن إنكارهم له فى آيات عديدة ، حسبنا منها قول الله تعالى :

---

(١١) تراجع ص ١٧٥ بالديوان ، تحقيق د. عادل سليمان جمال ، نشر الخانجى .

« وقالوا أئذا متنا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » (الاسراء : ٤٩) .

وقوله تعالى :

« وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » (الواقعة : ٤٧) .

« أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة » (النازعات : ١١) .

وقد بلغ من سفاهة أحدهم (أبى بن خلف) أن جاء النبى ﷺ وقد « أخذ عظما باليا فجعل يفتته بيده وهو يقول :

يا محمد : أترى الله يحيى هذا بعد ما رم ؟

قال ﷺ : نعم ويبعثك ويدخلك جهنم »(١٢) .

وفيه نزلت الآية : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ..) .

ولما لجوا فى سفاهتهم وإنكارهم قال الله تعالى مفحما لهم :

« أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه » (القيامة : ٣ ، ٤) .

وأحسب الإيمان بالغيب وبالبعث دعامتين يرتكز عليهما الإيمان فجميل من حاتم ترسيخ الإيمان بهما فى نفسه .

٢ - واعتقاده فى الثواب والعقاب ، فى بيئة تنكرهما :

« ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا .. الآية » (الجاثية : ٢٤) .

---

(١٢) يراجع تفسير الكشاف : جـ ٣ ص ٣٣١ ، الحلبى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م

حيث يقول :

وإنى وإن طال الثـواء لميت

ويعطمنى ما وى بيت مسقف(١٣)

وإنى لمجـزى بما أنا كاسـب

وكل امـرىء رهن بما هو متلف(١٤)

حـين ننظـر فى هذين البيتين نجـد ألفـاظا وعبارات تتضمن معـانى إسلامية كقوله : لمجـزى ، وكاسب ، رهن ، حيث تدور حول إيمـان الشـاعر الجازم بيوم تجزى فيـه كل نفس بما كسبت ، آية ذلك تأكيده بإن واللام ، ليدلنـا على اعتقـاده الجـازم بموت ثم ثواب أو عقاب بما كسبت .

وحين ننظـر فى القـرآن الكريم نجده يقول : « كل نفس ذائقة المـوت .. الآية » (آل عمران : ١٨٥) ، « كل امـرىء بما كسب رهـين » (الطـور : ٢١) ، « كل نفس بما كسبت رهينـة » (المدثر : ٣٨) .

وقوله تعـالى :

« اليـوم تجـزى كل نفس بما كسبت » (غافر : ١٧) .

« ليجزى الله كل نفس ما كسبت .. الآية » (ابراهيم : ٥١) .

« ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمـون » (الجاثية : ٢٢) .

---

(١٣) الثـواء : المقـام . يعطمنى : يهلكني ، ويروي : ويضطمني : يواريني .

(١٤) تراجع القصيدة بالدوان : ص ٢١١ - ٢١٣ .

٣ - وحول إيمانه بالموت والانتقال إلى دار أخرى يقول :

يسعى الفتى وحمـــام المـوت يدركه

وكـل يـوم يدنى للفتى الأجـــلا

إنى لا أعـــلم أنى سـوف يدركنى

يـومى وأصبح عن دنيـاى مشتغـلا(١٥)

فالشاعر يلفتنا إلى غفلة الكثيرين عن مصيرهم المحتوم، وانصرافهم عنـه ، مغترين بما هم فيـه من صحة وقـوة .

وقد أبدع حاتم حين صـاغ هـذا المعنى فى قالب شعرى ، إذ خال الناس لطغيانهم ساعين ، غير مكترثين بالموت الذى يطلبهم واختار لفـظ الفتى ، ولم يخـتر سـواه كالشيـخ مثـلا ، ليكون القهـر للإنسـان فى أوج حيـاته ، كأن الناس فى حلبـة سباق أو محاولة هـروب ، لكن الموت يدركهم لسلطانه ، وجعـل الأيام جندا من جنوده ، وكعادته أكد بمؤكدات كثيرة ليرينا يقينه الجازم .

إنى ، لأعلم ، أنى سوف يدركنى . واختار (أعلم) ليكون أقوى فى الاعتقاد ، وأنفى للشك أو الإنكار .

وأحسبه قائلا للنـاس : لا تغتروا فدنياكم هـذه زائلة واعملوا لمـا بعدها ، وأنا أولكم فلست بمخلد فيهـا .

ندع حاتما وننظـر الى القـرآن الكريم فنجده يقول :

« أينما تكـونوا يدرككم المـوت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (النساء : ٧٨) .

---

(١٠) تراجع القصيدة : ص ١٩١ - ١٩٤ بالديوان .

وفى الآية لفظ (يدرك) الدال على الظفر والغلبة .

وما تضمنته الآية :

« قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم .. الآية »

(الجمعة : ٨) .

٤ - آمن بالله رازقا موجودا ، حيث يقول :

كلوا من رزق الإله وأيسروا

فإن على الرحمن رزقكم غدا(١٦)

نسب حاتم الرزق إلى الله تعالى ، موقنا بأن كل نعمة لدى الإنسان منه تعالى ، وحتى لا تمسك النفوس شحا عاد مطمئنا لها بأن الرازق سوف يغدق عليكم عطاءه .

وتبدو الأريحية فى تعبيره ، حيث عبر بأيسروا الموحى بالتوسعة لأن الرزق رزق الإله ، ولس رزق البشر المألوف لديهم الضيق والشح . ولذلك شفع قوله بالتيسير بإلقاء السكينة فى القلوب ، حيث أكد وقصر الرزق على الرحمن (مبالغة فى الرحمة) .

وفى تقديم (على الرحمن) على (رزقكم) بعث للطمأنينة من فوات الرزق ، وهو أبلغ مما لو قال :

رزقكم على الرحمن ، وحتى لا يرونه (الرزق) بعيدا ، قال لهم : غدا .

وفى القرآن الكريم العديد من الآيات التى تطمئن الناس على رزقهم لأن على الله الرزق ، حيث يقول تعالى :

---

(١٦) تراجع القصيدة ص ٢١٧ - ٢١٩ بالديوان .

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقـه » (الملك : ١٥) .

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (هود : ٦) .

« وفى السماء رزقكم وما توعدون » (الذاريات : ٢٢) .

حتى تحداهم الحق بأنه الرازق الأوحد ، حين قال تعالى :

« أمن هـذا الذى يرزقكم إن أمسـك رزقه به لجـوا فى عتـو ونفـور » (الملك : ٢٢) .

وحيث اطمأن الشاعر إلى مصدر الرزق ازداد يقينـه بوجـود الله ، ورأى المـال غاديا ورائحا فقال :

ألـم تر أن المـال غـاد ورائح

وأن الذى يعطيـك غير بعيـد(١٧)

حتى استرعى هـذا المعنى المعافى بن زكريا فقال معقبا :

لو كان حاتم مسلمـا لرجى له من هـذا ما يغتبط به فى معاده ، ولقد أتى كتاب الله تعـالى فى هـذا المعنى ما يعجـز المخلوقين عن مسـاواته ، قال تعـالى :

« وأسألوا الله من فضله .. الآية » (النساء : ٣٢) .

وقال تعـالى : « وإذا سـألك عبـادى عنى فإنى قريب أجيب دعـوة الداع إذا دعـان .. » (البقـرة : ٨٦) (١٨) .

ولذلك أخذ ينفق بكلتا يديه ، حتى لامتـه زوجه ، فقال لها :

يارب عـاذلة لامت نزلت لهـا

إن على الله ما تنفـق الخلفـا(١٩)

---

(١٧) وقد روى : وأن الذى أعطاك سوف يعيد ، تراجع ص ٢٥٠ بالديوان

(١٨) يراجع جـ ٣ ص ٤٢٩ : تهذيب ابن عساكر ، ط المسيرة ـ بيروت .

(١٩) ينظـر الديوان : ص ٢٦٧ .

وله أيضا :

إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا

ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق(٢٠)

ورائع منه تعبيره بقوله :

إن على الله ، وليس على غيره ، وهذا مما يوحى بعميق الثقة عنده فى الله تعالى ، فلم يخف إقلالا .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : حاثا عباده على الانفاق ، لأنه سيخلفه : « **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** » (سبأ : ٣٩) .

٥ - ذم الرياء وحث على ابتغاء وجه الله تعالى فى الإنفاق :

عجيب من حاتم أن يسمو بالإنفاق ، حتى لا يكون مطية للشهرة فى بيئة بلغ المتفاخرون بصنائعهم ما بلغوا ، ولا عجب فإنه حاتم يقول :

فلو كان ما يعطى رياء لأمسكت

به خبنات اللؤم يجذبنه جذبا(٢١)

ولكنما ينبغى به الله وحده

فأعط ، فقد أربحت فى البيعة الكسبا(٢٢)

يرى الشاعر فى تصوير شعرى جميل الإنسان المعطى ماله

---

(٢٠) ينظر الديوان : ص ٢٨٦ .
(٢١) يقال ختلات وخبنات : عيوب ، وورد (جنبات اللوم) ، راجع الديوان : ص ٣٠ ، ط بيروت .
(٢٢) ينظر الديوان ص ٢٢٩ .

رئاء الناس فى موقع الاتهام لارتكابه ما يخالف الفطرة السوية ، وخاله ممسكا به ، والممسك به عيوب اللؤم ، أو جوانب اللؤم(٢٣) وكلتاهما شين ، وجعل لهما مخالب ، حتى تحكما القبض عليه ، وجعله من المهانة بحيث يجذب جذبا ! أخال الشاعر صور المرائى فى هذه الصورة المهينة لينفر منها الناس ، ولينفقوا ابتغاء وجه الله وحده ، وفى اختيار (وحده) حث على العمل الخالص لله وحده ، بعيدا عن ثناء الناس ، أو مزج هذا بذاك (إرضاء الله وابتغاء ثناء الناس) ، وأحسبهما لا يجتمعان .

ومن حيث أخلص العطاء لوجه الله يرجى الربح لصفاء الفطرة ، ولذا يحث آمرا على ذلك بقوله : أعط .

وهنا أجد القرآن الكريم ينعى على الرياء والمرائين حيث يقول :

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (النساء : ٣٨)

تلك الآية التى قرعت المنفقين أموالهم (رئاء الناس) للفخار ، وليقال ما أسخاهم وما أجودهم ، لا ابتغاء وجه الله(٢٤) .

وأجده يحث على ابتغاء وجه الله حين الانفاق ، ضمانا لثواب الله تعالى :

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (البقرة : ٢٧٢)

---

(٢٣) على الروايتين الواردتين فى الديوان : ص ٢٢٩ ، نشر الخانجى ، ص ٣٠ ، ط بيروت .

(٢٤) يراجع الكشاف : جـ ١ ص ٥٢٦ ، ط الحلبى .

٩ ـ التعفف عن الفحشاء :

ليس بخاف ما شاع عند العرب فى جاهليتهم من حب للنساء والتحدث عن صفاتهن والإفصاح عن مكنون أسرارهن ، كما هو الحال مع امرىء القيس مثلا ، الذى يذكر ما كان بينه وبين عنيزة : اسم عشيقته (٢٥) قائلا :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقالت لك الويلات إنك مرجلى(٢٦)

تقول وقد مال الغبيط بنا معا

عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل(٢٧)

فقلت لها سيرى وأرخى زمامه

ولا تبعدينى من جناك(٢٨) المعلل(٢٩)

لكن حاتما عزف عن الخنا الفاشى بين الكثيرين ، حيث يطالعنا عن عفته فى قوله :

---

(٢٥) عنيزة : ابنة عمه ، وقيل : هو لقب لها واسمها فاطمة ، وقيل العكس ، تنظر : ص ١٢ ، شرح المعلقات السبع للزوزنى ، ط. مصر .

(٢٦) الخدر : الهودج ، مرجلى : تصيرنى راجلة لعقرك ظهر بعيرى .

(٢٧) الغبيط : ضرب من الرحال ، أو ضرب من الهوادج ، عقرت بعيرى : أدبرت ظهره .

(٢٨) الجنى : اسم لما يجتنى من الشجر ، وهنا جعل العشيقة بمنزلة الشجر ، وجعل ما نال من عناقها وتقبيلها وشمها بمنزلة الثمرة. المعلل : المكرر ، من قولهم : عله يعله : إذا كرر سقيه .

(٢٩) تراجع معلقة امرىء القيس : ص ٧ ـ ٤١ المصدر السابق .

رب بيضـــــاء فرعهـــا يتثنى

قـد دعتنى لوصلهـــــا فأبيت

لم يكن بى تحـــــرج غير أنى

كنت خدنا(٣٠) لزوجهـا فاستحيت(٣١)

ما أجمـل ما صـور به حاتم عفتـه ، فهى بيضـاء تتثنى لينا ، وليست دميمـة أو نحيفـة القد ! واختـار (بيضاء) ليلفت أنظارنا إلى معنى دقيق ، ربما غاب عن الكثيرين هو أنه لا يعنى جمـال البشـرة وحسب ـ وإن كان محبوبا والعـرب يفضلونه على سـائر الألوان ـ وإنما يعنى بلونها الأبيض أنها شريفة وليست من الرقيق اللائى كن يجلبن من الأسواق للخدمة(٣٢) ليزداد عنصر التشويق إليهـا (جمال وشرف) وزاد الصـورة الشعرية جمالا بقوله :

(قد دعتنى لوصلهـا) على التحقيـق ، أى كان المطـلوب ، لا الطالب ، وقد أبرز التعفف فى أسمى معانيه حين قال : (فأبيت) على التعقيب والفـور لا التراخى ٠

وممـا وشى به الصـورة قـوله ـ حتى لا يفهم أنه حصـور أو عزهاة(٣٣) ـ (لم يكن بى تحـرج) ليس لدى عائق ، فأنا كامل الرجولية ، وما يمنعنى عن وصالها سـوى أننى صـديق لزوجها فاستحييت ، أى أن الوفاء والحيـاء هما اللذان منعـاه من الإقدام

---

(٣٠) خـدنا : صديقـا ٠

(٣١) يراجع الديوان : ص ٢٤٣ ٠

(٣٢) وكان يغلب عليهن السواد ، وإن كانت هناك ألوان أخرى لهن ٠

(٣٣) حصـور : لا يأتى النساء ٠ يراجع اللسان : جـ ٢ ص ٨٩٦ ، مادة : حصـر ، عزهاة : العازف عن النسـاء ، أو الذى لا يحدث النساء ، ولا يريدهن ، يراجع اللسان : جـ ٤ ص ٢٩٣٣ ، مادة : عزه ٠

على اللذة الراغمة ، وكنا نود من الشاعر أن يتعفف عن هذه اللذة لذات العفة، وألا يتعلل بصداقة زوجها، لأن هذا يضعف القول بعفته ، فلو لم تكن زوجا لصديقه لأجابها طبقا لما قال !!

كأن يقول مثلا - بعد عرضه لمفاتنها ودعوتها إياه - إننى عزفت عنها تعففا عن هذا الأمر القبيح ، ومع هذا فهو عفيف ، لكن العبارة لم تسعفه ، ولكن جواد كبوة !

وهل طلب الإسلام أكثر من ذلك صيانة للأعراض وطهارة للأنساب ، حين قال تعالى : « **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا**) (الاسراء : ٣٢) .

وسد أبوابه المؤدية إليه من النظرة الآثمة :

« **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ... الآية** »(النور : ٣٠) ، أو الخلوة بمن لا تحل ، ولذا شرع الاستئذان فى دخول البيوت : « **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** » « **وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ... الآية** » (النور : ٢٧ ، ٢٨) .

٧ - الإحسان إلى الجارات والتعفف عنهن خاصة :

لئن كان التعفف عما لايحل واجبا، إنه عن الجارات أوجب، ذلك ما كان من حاتم رعاية لحرمة الجار ، حيث يقول :

(أ) لا نطرق الجارات من بعد هجعة

من الليل إلا بالهدية تحمل(٣٤)

---

(٣٤) يراجع الديوان : ص ٢١٩ .

فلا يطـرق حارته لا بخير - وهو محق فيما يفعـل - لكنه أثار شـكوكا كثيرة فى تعبيره بحمـل الهدية بعد هجعـة من الليـل ، ولمـاذا لم يؤجلها إلى النهـار ؟ وربما أراد الشاعر إيصـالها فى هذا الوقت ، حتى لا يغـرى غيره نهـارا بدفع الهدايا ، التى تكون سببا فى ولوجهم بيوت الجارات ! وكان الأجـدر به ألا يختار هذا الوقت المريب !

(ب) ويقول منكرا أن يأتى مع جارته ما يشينه :

إذا ما بت أختل(٣٥) عرس جارى(٣٧)

ميخفينى الظـــــلام فلا خفيـت

أأفضـح جـارتى ، وأخـون جـارى

معـــاذ الله أفعـــل ما حييت(٣٨)

فليس الشاعر متخذا من الظـلام سترا يخفيه عن الأعين ، لينال من الجـارة غرضا دنيئا ، كذلك فليس هو ممن يخادعون الجارات ليوقعوهن فى الرذيلة ، أو ينفى عن نفسـه مخادعة الجارة لتسلم له نفسها فى جنح الظـلام ، بعيدا عن الرقبـاء !

وعلل لذلك مستفهما ومنكرا على نفسـه أن يقترف أمـرا يفضى إلى فضيحة جارته من جهـة وخيانة جـاره (زوجها) من جهـة أخـرى .

---

(٣٥) الختل : تخادع عن غفلة . يراجع لسان العرب : جـ ٢ ص ١١٠ ، مـادة : ختـل .
(٣٦) عـرس جارى : زوجة جارى .
(٣٧) يراجع الديوان : ص ٢١٠ ، ٢١١ .

وحسم ذلك كله بقوله : (معـاذ الله أفعـل ما حييت) .

وهـذا المعنى تعطيه الآية الكريمة عن يوسف عليه السلام حين عف عن اغـراء امـرأة العزيز له :

« قال معـاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظـالمون »

(يوسف : ٢٣) .

(حـ) ويقـول :

وما أنا بالمـاشى إلى بيت جـارتى

طـروقا أحييها كآخـر جانب(٣٨،٣٩)

ينفى حاتم عن نفسـه أن يأتى جارته ليـلا كاتيان الغريب إمعانا فى التخفى محييا لها كما فعـل البعض ـ وأحسبه عرض بمن هذا شـانه وديدنه ـ وهنا عـرض للتحبـة ، أى مجـاذبة أطـراف الأحاديث التى ربما تمتـد إلى معظم الليـل ـ وهو سـتر لهـذه الأحدوثة ـ وقد تكون الأحاديث مقدمات للقاءات آثمة « سـلام ، فمـوعد ، فكلام .. الخ) أو سـلام ، فـكلام ، فموعد فلقـاء .

وعجب فطنته إلى هـذه الأبواب التى يلج منها (لعاشقون إلى معشوقاتهم) ، وأعجب منهـا تجنبها كلية ، بعدا عن الشبهات .

والبعد عن الشبهات فيـه حماية للدين والعـرض ، فهذا المعنى تؤكده الآية الكريمة : (ولا تقـربوا الزنى ..) فلا تقربوا تنهى عن كل ما يؤدى إلى هذا الطريق من نظر وكلام وسلام .. الخ .

---

(٣٨) الطروق : الاتيان ليـلا ، وفى الحديث : نهى المسافر أن يأتى أهله طـروقا : ليلا . رجل جانب ، وجنب (بضمتين) : غريب .

(٣٩) يراجع الديوان : ص ١٩٥ .

(د) ويقـــول :

فأقسمت لا أمشى على سـر جـارتى

يد الدهر(٤٠) ما دام الحمام يغـرد(٤١)

جميـل من الشاعر تعبيره هذا التعبير الموحى بتجنبه لسر جارته ، حين أقسم (والقسم للأمـر العظيم) ونفى المشى على سر جارته ، وهنا يسترعى انتباهنا تصـويره لسـر جارته بأنه جسم حتى أصبح من القـوة بحيث يمشى عليـه ، وهـذا يعكس إيمان الشاعر بقدسية هـذا السر وأنه سياج ضخم منيـع ينبغى عدم الاقتراب منه ، وكأنه ينعى على الذين ينتهكون حـرمة هـذا السـر باعتلائه وتدنيس طهـره ! ، وأخـاله اختـار (على) الدالة على الاستعلاء ولم يختر « إلى »(٤٢) مثـلا ، مبشعـا حال من يتتبعون سر جاراتهم ، ولذا نفى أن يكون هو ، وعضـد ذلك من قبـل بالقسـم ، وأراد الشاعر أن يبين أن هـذا الإباء سيكون سرمديا (يد الدهر) .

ورائع منـه جعلـه للدهـر يدا (فى أسلوب استعارى جميل) .
كما ازدانت الصـورة حين رصعها بقوله :

(ما دام الحمـام يغـرد) لمـا تفيده من الديمومة ، والوداعـة فى الحمـام دون غيره من الطيور كالصقور ، والنسـور وغيرهما من جوارح الطير ، وفى (يغـرد) جمال الصوت وعذوبته ، فهو الصوت المستحب ، لا المستكره كنعيق الغـربان ، نباح الكلاب ، نعيب البـوم !!

---

(٤٠) يد الدهـر : أبد الدهـر .
(٤١) يراجع الديوان : ص ٢٤٩ .
(٤٢) ولو قال (إلى) لكانت أخف وعاة من (على) وكلاهما شر .

ولعله قصد من هذا إلى أنه سيكون وادعا ، مسالما ، لا يكون منه ما يؤذى جارته ، كالحمام ، وادعاء ، ذا صوت رخيم ، فلا يفعل(٤٣) أو يقول إلا الحسن ، فما أروع ما عبر به عن جنوحه عن تتبع سر جارته بهذه الصورة الخلابة ، وهذا المعنى تؤكده الآية الكريمة : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ... الآية » (الحجرات : ١٢) .

(هـ) ويقول عن جارته الدنا(٤٤) :

وما ضر جارا ، يا ابنة القوم فاعلمى

يجاورنى الا يكون له ستر

بعينى عن جارات قومى غفلة

وفى السمع منى عن حديثهم(٤٥)وقر(٤٦)

يبرز لنا الشاعر صورة مضيئة لما كان عليه مع جبرانه وجاراته الملاصقات لداره ، حيث لم يسع إلى الجارة البعيدة عنه ، أو يتخذ من الظلام كنفا بحمبه أو من الخديعة ومعسول الكلام مطية للوصول الى الجارة !!

فالجارة هنا ليست بمنأى عنه ، إذ بسمعها ويراها ، شاءت أم لم تشأ . ولا تثريب عليه فهو جار لها ولو قصد التسمع أو تحديق البصر ما استعصى عليه شيء من خفى أمرها ، ولن يعرف أحد من الناس ما يفعل اللهم إلا نفسه اللوامة .

---

(٤٣) إلا الحسن .

(٤٤) جمع دنيا مثل الكبرى والكبر . يراجع اللسان : جـ ٢ ص ١٤٣٥ مادة : (دنا) .

(٤٥) وقر : الصمم وذهاب السمع .

(٤٦) يراجع الديوان : ص ٥١ ، ط بيروت ، حاشية ص ٢٠٣ الديوان : تحقيق د. عادل سليمان / الخانجي .

كيف يحافظ على الجارة القريبة (سكنا) :

١ - حرص على أن يغرس الطمأنينة فى نفس زوجها ، ليكون واثقا من حسن جواره له ، فنفى أن يضار أى جار له من جانبه ، حتى ولو لم يكن له حائل يحول بين دارى وداره (الحد الفاصل بين الدور وبعضها البعض) وعبر (بالستر) ليزيد من الطمأنينة فى قلب الجار .

٢ - وعمد إلى ما يستغرب وقوعه بالنسبة للجارات - وهن بيت القصيد - لشدة المحافظة عليهن ، حين عمد إلى تعطيل حواسه اللاتى تجرح بهن الجارات - وبخاصة البصر والسمع - فى تصوير رائع ، حيث سلب العينين نورهما ، وجعل الغفلة مكان الإبصار - حين النظر إلى جارات قومه - وفى الغفلة ما يفيد الانصراف كلية عن التطلع إلى الجارة ، وقد خال نفسه من البلاهة بحيث لا تطرأ الجارة على خاطره فيحدق النظر إليها ، ثم خال الغفلة حالة فى العينين ، شاخصة .

ولو قال : « عمى »(٤٧) ، ما برئت ساحته ، فقد يتجسس بأذنيه ، لكنه أزال هذا اللبس ، حين أرانا أذنيه ذاهبا سمعهما - حين تتحدث(٤٨) الجارات - ورائع منه تمكين الوقر فى الأذنين بقوله : (فى السمع) وأحسبه فطن إلى خطر السمع ، لبلوغه ما لا يبلغه البصر(٤٩) ،

---

(٤٧) بعينى .

(٤٨) وهذا يوحى بالاشتراك فلا يحدث المرء نفسه إلا إن ذهب عقله .

(٤٩) إذ يسمع الإنسان حديث الجار من وراء الجدر ، وأحسبه لذلك قال : حديثهم ليفيد أن الحديث المراد مع الأزواج (الأحاديث الخاصة) فعبر بالمذكر ، تغليبا ، ولم يقل : حديثهن .

أو كان السمع لا يحتاج إلى عناء - فى التعرف على مكنون الأسرار - كما يحتاج النظر(٥٠) فمكن للوقر ليحل محل السمع ، وزاد الأمر إيضاحا بقوله عن السمع (منى) :

وهذه الصورة ترينا فوق ما أرتنا قوة الإرادة واحتمال الصعاب فى سبيل الغاية النبيلة ، كما أنها أرتنا القبح وقد ارتدى أكسية الجمال ، إذ الغفلة والصم - وهما قبيحان لكنهما جميلان فى موقعهما ، وهو كفهما عن النظر والتسمع إلى حديث الجارة .

أهناك صورة تعدل صورة حاتم فى حسن الجوار والبعد عما يخدش حياء جارته ؟ حتى فى المألوف ، فقد يرى جارته ويسمع حديثها غير عامد لذلك لكنه سد الباب بتعطيل السمع والبصر .

وفى هذا المعنى حثت الشرائع السماوية على الإحسان إلى الجار (الدانى والقاصى) ومنها الإسلام ، حيث يقول القرآن الكريم مؤكدا حرمة الجار بعد عبادة الله وبر الوالدين وذى القربى « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار وذى القربى والجار الجنب**(٥١) .. الآية » (النساء : ٣٦)

---

(٥٠) فالنظر لا يرى إلا ما ظهر ، لذا فالمرء إن أراد النظر عليه أن يستشرف المرئى وفيه جهد مبذول ، بخلاف السمع فالأصوات تأتيه ، دون كد ، ولو كانت أصواتا منكرة !

(٥١) الجنب (بضمتين) : البعيد الذى لا قرابة بينك وبينه . يراجع مصحف القادسية المفسر (مختصر تفسير الطبرى : دار القادسية بالاسكندرية) .

و : ويقول نافيا عن نفسه زيارة الجارة حين غياب زوجها :

وما تشتكينى جارتى غير أننى

إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

سيبلغها خيرى ويرجع بعلها

إليها ، ولم تقصر على ستورها(٥٢)

يقف بنا الشاعر عند المنزلة التى بلغها لدى قومه فى العفة والأمانة ، حتى اؤتمن على أثمن شىء لدى الإنسان وهو عرضه ، فى أثناء سفر الزوج ، وفى هذا مرتع للنفوس الضعيفة ، فنفى أن يكون ممن تشتكيهم جاراتهم ، لاستغلالهم غياب الأزواج ! بل نفى الزيارة للجارة فى وحدتها ! بعدا عن إلصاق الريبة بها ، وسموا بنفسه عن التدنى إلى مهاوى الرذيلة ، لكنه حريص على الوفاء لزوجها فى إيصال ما تتبلغ به ، دون طلب منها ، ودون ذهاب بنفسه ليدفع لها هذه الهدايا البريئة من الغرض ، فيبعث بها خادمه ، أو زوجه ، أو من لا يتهم مثلا .

وجميل منه عن هذا بقوله : (سيبلغها خيرى) حيث سمى ما يبعث به خيرا ، وأحسبه يعنى ما يقول ، لأنه خير فى ذاته ، وفى الغاية المرسل إليها ، وأخفى اسم الشخص المرسل بهذه الأشياء لتذهب العقول كل مذهب بعيدا عن مواطن الريبة ، وقد أفهم (سيبلغها) التجرد الموحى بالكثرة فى الإرسال مرة تتلوها مرة أخرى وهكذا حتى يعود زوجها ، وقد أصبح أهله (زوجه) فى خير حال (إطعاما من جوع وصيانة من فساد) وما أجمل وأروع

---

(٥٢) تراجع القصيدة ص ٢٢٩ - ٢٣٥ بالديوان .

مـا صـور به صيانته للجـارة ، حين غيـاب زوجهـا ، حيث يقول : (ويرجع بعلهـا إليها ولم تقصر على سـتورها) .

بأسـلوب كنائى غـاية فى الأدب والاحتشام وعفـة النفس عن الخنا فنفى أن يكون قـد اقترب منها ، ولم يجتمع بهـا فى خلوة خاصـة ، واختـار (سـتورها) ليلفتنا إلى عفتـه المفرطة من جهـة ، وإلى أن للمـرأة مكانا خاصا عبر عنـه بالنـور ، أو أراد ما تستتر به من ثياب ، فينبغى عـدم الاقتراب منها ، فإنهـا غير مخصصة إلا لواحـد فقط ، هو الزوج ، من جهـة أخرى .

ولذا فلم ينزلق إلى هـذا الدرك باقتحام هذه الستور التى لا تحل لـه .

والرائع هنـا أنه جمع بين المتضادين : وهما القـرب والبعـد ، فقريب من زوجـة جـاره بهداياه ، بعيـد عنها بشخصه (قريب بالخير ، بعيـد عن الشر) .

ولس هـذا بغريب على حـاتم ، فقـد كان كرمـه مطمعا فيـه ، وإن اعتيـاده الجـود والعطـاء ربما يغـرى به ، وإن ثراءه فى مجتمع قوممه يدنى إليـه المحتاج ومـا أكثر مـا تحتاج البيـوت فى غيـاب الرجـال .

هـذا وللبيتين السابقين مناسبة هى أن رجـلا : خرج من بنى عدى وكان مصاحبا لحـاتم ، فأوصى حاتمـا بأهله ، فكان يتعاهدهم ، فإذا جزر بعث إليهم من أطايب الجزور . فراودته امرأة الرجـل فاستعصم وأبى ، فخشيت أن يفضحها عند زوجهـا لدى عـودته ، فلمـا رجـع بادرته أن حاتمـا أرادها ! فبقى الرجـل متحيرا دهشـا ، فهو يعرف حاتمـا حق المعـرفة ، ومـا أنهتـه إليـه امرأته ليس من خلق حـاتم

وشمائله ، ولكن ما الذى يدعو زوجه إلى الكذب والاختلاق ؟ وهاب أن يحد ثحاتما وأكبره • وظل حيران صعقا حتى بلغ حاتما من قبل امرأته (بكسر القاف وفتح الباء) فقال البيتين السابقين وهما :

وما تشتكينى جارتى غير أننى
إذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيرى ويرجع بعلها
إليها ولم تقصر على ستورها

فزال ما فى نفس الرجل من الشك ، وفطن إلى الأمر ، وعلم أن حاتما برىء مما رمته به المرأة ، فطلقها(٥٣) •

وبعد

فلقد راعى حاتم حرمة جاره وصان جاراته بالتعفف عنهن سادا كل الثغرات التى ينفذ منها من يريدهن بسوء ، كالليل حين يرخى سدوله ، وغياب الزوج ، وخداعهن بمعسول القول •

وهل طلب الاسلام وما سبقه من شرائع من الجار نحو جاره وجاراته أكثر مما فعل حاتم الطائى ؟

٨ ـ الرفق بالضعيف :

كان يجير واحد أن :

رزق حاتم قلبا رقيقا ، على الضعفاء ، الذين لا حيلة لهم يدفعون بها غوائل الدهر عنهم ، وهذه الخصلة لا توجد إلا عند ذوى القيم الرفيعة ، من أمثال حاتم حيث يقول لزوجه :

---

(٥٣) يراجع الديوان ص ٨١ نقلا عن شواهد الكشاف ص ٧٥ •

أما وى ! إنى رب واحـد أمـه(٥٤)

أجـــرت فلا قتـــل عليـها ولا أسر(٥٥)

يجير حـاتم واحـد أمـه فى مواطن البأس ، التى يضحى القتـل أو الأسر فيهـا مألوفا رحمة بأمـه أن تصـاب فى وحيدها وقـرة عينها، فتهلك أسى وحسرة عليـه !!

وبصنيعه هـذا يعـد واضـع لبنـة فى صرح العفـو عند المقدرة ٠

والعفـو هنا ليس عفـوا معتادا ، بل إنه عفو ممزوج بالرحمة ٠

وهذا المعنى تؤكده الآية الكريمة :

« ٠٠ فمن عفـا وأصـلح فأجـره على الله إنه لا يحب الظـالمين » (الشورى : ٤٠)

ممـا تؤكده أيضـا الآية الكريمـة :

« ٠٠٠ والعـافين عن النـاس والله يحب المحسنين »(آل عمـران ١٣٤) ٠

٩ ـ صـــلة الـرحم :

كان لا يظلم ابن عمـه ، ولو جـار عليـه الزمان ، حيث يقول :

ولا أظلم ابن العم إن كان إخـــوتى

شـهودا ، وقد أودى بإخوته الدهـــر(٥٦)

---

(٥٤) رب : للتقليل ، وأراه منصبا على المجار ، لا على المجير ، فالقلة فى وجود وحيـد ان مستحقا للقتل ، ولـ انصب على حـاتم مـا عـده من مفاخـره وحـدث به غيره ، وان كان قليـلا فانه يعدل الكثير لنبل الهـدف ٠

(٥٥) تراجع القصيدة ص ١٩٨ ـ ٢٠٣ بالديوان ٠

(٥٦) تراجع القصيدة ص ١٩٨ ـ ٢٠٣ المصدر السابق ٠

وما من شيمتى شتم ابن عمى

وما أنا مخلف من يرتجينى(٥٧)

ولا أخذل المولى وإن كان خاذلا

ولا أشتم ابن العم ، إن كان مفحما(٥٨)

ولا زادنى عنه غناى تباعدا

وإنكان ذا نقص من المالمصرما(٥٩)(٦٠)

ولا يلطم ابن العم ، وسط بيوتنا

ولا نتصبى عرسه(٦١) حين يغفل(٦٢)

يحترم الشاعر ابن عمه ، ولو جار عليه الزمان بأن ذهب بإخوته ، أو بماله ، أو بفصاحة لسانه . ولا ينتهك عرضه .

وما أروع ما عبر به عن الحفاظ على حسن صلته بابن عمه .

فقد يظن أن الشاعر - أن كان إخوته حضورا ، ولا سند لابن عمه لفقد إخوته - سيفتك به ، ويستذله ، إذ لا نصير له ، لكنه لا يفعل ، احتراما لشعور ابن عمه ، حتى لا يكون هو والزمان عليه إلب ! !

---

(٥٧) يراجع الديوان ص ١٥٢ .

(٥٨) المفحم : العيى الذى لا يطيق جوابا .

(٥٩) المصرم : قليل المال .

(٦٠) تراجع القصيدة ص ٢١٧ - ٢٢٧ بالمصدر السابق .

(٦١) لا نتصبى : لا نطلب خديعة حرمة الخليل ولا ندعنوها الى الصبا يراجع لسان العرب جـ ٣ ص ٢٣٩٨ .

(٦٢) يراجع الديوان ص ٢١٩ .

ولا يشتمه ولو كان شاتما أو غير شاتم بأن كان غيبيا ، لا يكاد يبين ، فلا ينكأ جراحه شاتما ، مستغلا ضعف لسانه ، لأنه ليس من شيمته ، أى له خلق يمنعه من هذا الإسفاف .

ولا يخذله فى أى موطن ولو كان ابن عمه خاذلا .

ولو كان فقيرا معدما فلن يحتقره ، بالتعالى عليه ، وتلك لفتة كريمة من حاتم حتى لا يترك التباعد عن ابن عمه الفقير آلاما فى نفسه يصعب علاجها وذهب إلى رعاية ابن عمه صغيرا و (لا يلطم) مادام فى ديارهم ، وهذا أمارة علو مكانته وقومه ، ثم ولج إلى باب يمكن أن يؤتى منه ابن عمه وهو عدم مخادعة زوجه (كبيرا) حين يغفل عنها !

فلا يضار ابن عمه صغيرا لضعفه ، أو وحيدا لانفراده ، أو فقيرا لنقص ماله ، أو غافلا فى عرضه ، على حين قوته وكثرة رجاله ووفرة ماله .

ماذا بقى من حقوق لابن العم نحوه إذا ؟

إن حاتما بتلك الفعال طبيب نفسي سبق العصور ، حين يستل سخائم العداوة من قلب ابن عمه ، فتدوم له مودته أبدا ، ويضحى له ركنا وظهيرا ، لا حاسدا وغيورا .

ولو اتبع الناس منهج حاتم تجاه بنى عمومتهم ما أوغرت الصدور ، ولا أججت نيران العداوة والبغضاء بين الناس(٦٣) .

فما أكرم حاتما واصلا لرحمه !

---

(٦٣) أعنى على عهد حاتم ، فقد كانت الحروب والأيام تملأ حياتهم!! أما فى الإسلام فقد جاء القرآن الكريم والسنة الشريفة بما أربى على ذلك .

وحول هـذا المعنى دعـا الإسـلام إلى الحث على صـلة الأرحام ، حيث يقول الله تعـالى :

« واتقـوا الله الذى تساءلون به والأرحام » الآية (النساء : ١)

ونعى على القاطعين لأرحامهم قائلا :

« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسـدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » (محمـد : ٢٢) .

١٠ - حسـن الصـحبة فى السـفر :

لمـا كان السفر قطعـة من العذاب وجب على السفر(٦٤) التخلق بآداب السفر لتهـون وعثاؤه ، وممن تخلق بهـذا الخلق حاتم الطائى، حيث يقول :

فما أنا بالطـاوى حقيبـة رحلهـــا
لأركبهـا خفـا وأترك صـــاحبى(٦٥)

ومـا أنا بالسـاعى بفضـل زمـامها
لنشرب مـا فى الحـوض قبل الركائب(٦٦)

ثم قال ينصح غيره بالتزام آداب السفر بمـا هو خلق له :

إذا كنت ربـا للقلوص فـلا تـــدع
رفيقـك يمشى خلفهـــا ، غير راكب(٦٧)

---

(٦٤) السفر - بفتح السين وشديدها ، وسـكون الفاء - جمع سـافر ، والسفر والمسافرون بمعنى ، وفى الحـديث : أنه قال لأهل مكة عـام الفتح : يا أهل البلد صـلوا أربعـا ، فإنا سـفر . يراجع اللسـان جـ ٣ : ص ٢٠٢٤ .
(٦٥) الحقيبة : مـا يشد خلف الرحل .
(٦٦) الركائب : الإبل التى يركبها الناس .
(٦٧) القلوص : النـاقة الشابة .

أنخهـا ، فأردفـه ، فإن حملتكمـا

فذاك ، وإن كان العقاب(٦٨) فعاقب(٦٩)

هـذه صـورة مشرقة تبرز لنـا أدب الرحـلة فى أنبل صورة ، لمـا اشتملت عليـه من مشاهد انتفت معها الأثرة وبدا فيهـا الإيثـار ، ليهون السـفر .

والمشاهد التى وشيت بها هـذه الصـورة هى :

١ ـ حـرصه على راحـة صاحبه فى السفر ، ولا يعنى أى صاحب ، وإنما يعنى الرفيق المصاحب له فى الرحلة ولا راحـلة له ، وقـد يعنى خـادمه مثـلا فهو يتواضـع لصاحبه ويركبه معـه ، ولا يستأثر بالراحلة ـ وهى راحلته ـ من دونه إبقاء على راحلته غير مثقلة بحملهما .

يؤكد هذا نافيـا عن نفسه الأثرة بقوله (فما أنا) فليس من دأبى .

لذلك نراه ينصح كل مسـافر أن يحذو حـذوه ، ناهيا له أن يدع رفيقـه ماشيا خلف راحلتـه الفتيـة ، وفى قوله (القـلوص) احتراس من أن تكون الناقة هزيلة فلا تطيق الاثنين(٧٠) معا . وبجانب الراحـة الجسدية أحسبه يومىء إلى الراحـة النفسية ، فمسافر لا راحلة له ، يسير خلف رفيقـه فى السفر ، راكبـا راحلته ، تطـوى به البيـد طيـا وهى قوية كيف تكون حاله ؟

ألا يزداد نصبا على نصب ! ولو بقى دون إركاب من رفيقه لترك هذا الموقف فى نفسـه جرحا غائرا !

---

(٦٨) أنخهـا : أركعها ، أردفه : أركبـه خلفك ، العقاب : المناوبة فى الركوب ، بأن يركب مرة ويركب صاحبه مرة (يتعاقبان) .
(٦٩) تراجع القصيدة ص ١٩٥ ـ ١٩٦ بالديوان .
(٧٠) ركوب الاثنين معـا لثقلهما .

فمن أدب الصحبة أن يردفه حتى يبلغ مقصده .

٢ - حرص الشاعر على احترام صحبه فى السفر وعدم الاستئثار عليهم بشىء يعوق سيرهم ، ولم يكن شيئا ثانويا ، بل إنه شىء ضرورى إنه الماء فى السفر ، لا الحضر ، والنفوس قد لا تقوى على الإيثار فى هذا الوقت ، لكن حاتما أنف أن يكون ذاك الأنانى ، فلم يسرع براحلته إلى حوض الماء لتشرب قبل الرواحل التى يمتطيها رفقاؤه، فتقوى على السفر من دونهن ، لأنها ريا وهن عطاش ، فيسبقهم إلى حيث يريد ، لكنه آثر السبق الخلقى على السبق السفرى .

٣ - الرفق بالحيوان :

لم يكن الشاعر غافلا عن الوسيلة التى تبلغ المسافرين البلاد التى يريدونها وهى الناقة فرق قلبه لها وحظيت منه بنصيب ، نعده به من طليعة المنادين إلى الرفق بالحيوان .

كيف ذاك ؟

أخاله أمامنا ماثلا يصدر تعليماته لرفيقه فى السفر فى الرحمة بالناقة :

(أ) يطلب منه أن ينيخها له - قبل الركوب - ليكون أدعى إلى امتطائها جالسة على الأرض مستريحة ، وحرص فى نفس الوقت على الراكب بأن لا يركبها واقفة ، خوفا عليه من اضطرابها فتطرحه أرضا !

(ب) دعا إلى مراعاة حال الناقة ، حتى لا تكلف فوق طاقتها فقد تكون حاملا أو هزيلة لا تقوى على حمل الاثنين معا ، أو يكون الرحل ضيقا لا يتسع لاثنين ، أو تكون جائعة أو ظمأى فاعتراها الهزال !

عند ذاك ينبغى عدم الإرداف ، ويكون التناوب ، رحمة بها .

فالصورة تعد نبراسا يهتدى به المسافرون ، كما تعد لبنة فى أدب الرحلات ، ويحق لنا أن نفاخر به لسبقه عصور الارتقاء العلمى ومما يؤكد فخرنا به أنه فى عصر الناقة والجمل ، الذى يصمونه بالتخلف .

هذا وقد جاء الاسلام مؤكدا هذه المعانى السامية فى نفوس أتباعه فدعا إلى حسن الصحبة (اختر الرفيق قبل الطريق) وإلى الرفق بالضعيف فجعله أميرا للركب ، ورفق بالدابة ونهانا أن نحملها ما لا تطيق .

وحث على الإيثار وأثنى على الأنصار ، حين آثروا المهاجرين على أنفسهم فقال : « **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (الحشر : ٩) .

وحث نبى الإسلام ﷺ على التعاون - وأخاله فى السفر (من كان له ظهر فليعد به على من لا ظهر له ...) وكان ﷺ مضرب الأمثال فى ذلك رحمة ورفقا وعطفا ، سفرا وحضرا .

١١ - التغاضى عن الحاسد والمنافق :

تغاضى حاتم عن هذين الصنفين فى الناس ، اتقاء لعرضه ودينه ، حيث يقول :

وكلمة حاسد من غير جرم

سمعت فقلت مرى فانفذينى(٧١)

---

(٧١) روى (فانقذينى) فى ط : بيروت ص ٩٠ بتعليق كرم البستانى، ط : بيروت أيضا / أحمد رشاد .

وعـابوها على ، فـلم تعـبنى

ولم يعـرق هلـا يـوما جبينـى

وذى وجهـين يلقـانى طليقـا

وليس إذا تغـيب يأتليـنى(٧٢)

نظـرت بعينـه فكففت عنـه(٧٣)

محـافظة على حسـبى ودينـى(٧٤

(أ) ترفع حـاتم عن صـغار الحاسـد ، لأن الحاسـد يتقـد قلبه نارا على المحسـود فلو لم يتغـاض عنـه لازداد شـواظ ناره ، والعلاج فيمـا ذهب إليـه حـاتم لتخبو ناره ، وفى هـذا يقول الشاعر :

اصبر على مضض الحسـو د فإن صبرك قـاتله

فالنـار تـأكل بعضـها إن لم تجـد مـا تأكـله

ولقـد صـار بهـذا أسـوة للناس من بعـده ، من ذلك مـا ورد أن:

عبد الله بن شـداد بن الهـاد ـ وكان رجلا من أبنـاء أصحاب رسول الله ﷺ وآله قال لابنـه :

يا بنى ، إذا سمعت كلمة من حاسـد فكن كأنك لست بالشـاهد ، فإنك إن أمضيتها حيـالها رجع العيب على من قالهـا ، وكن كمـا قال قال حـاتم :

وكلمة حسـد من غير جـرم البيتين(٧٥)

---

(٧٢) روى (يأتسينى) فى الطبعتين السابقتين ص ٩٠ ، ص ٥٠ .
(٧٣) كففت : توقفت .
(٧٤) يراجع الديوان ص ١٥٢ بتحقيق د. عادل سليمان / الخانجى .
(٧٥) يراجع الديوان ص ١٤٩ بتحقيق د. عادل سليمان / الخانجى .

هـذا وقد ذم القـرآن الحاسدين : « **أم يحسدون النـاس على ما آتاهم الله من فضـله** ٠٠ » الآية (النساء : ٥٤) ٠

(ب) وعرض لذى الوجهين ، الذى يلقـاه طلق المحيا ويضمر فى نفسـه الكراهيـة بطريقة يبـدو منهـا الذكاء المتوقد ، حين نظـر بعين المنافق فعـرف حقيقتـه ، ونتساءل أمـام هـذه العبارة ، هل استعار حاتم عين المنافق فنظـر بهـا ، ثم استبان له المضمر فى نفس صاحبها ؟

أو أن حـرف الجـر (البـاء) قد ناب عن (فى) وحين نظـر ـ لألمعيتـه ـ فى عين المنافق ، بدا له ما كان خافيـا ، إذ العين ترجمان القلب أحيانا ، ولا يعرف مـا بهـا إلا كل لبيب ٠ أرجح الاحتمال الثانى٠

وتجلى سـمو حاتم مع هـذا الصنف من النـاس ، حين كف عنـه بغير عقاب أو عتـاب ، لا لخـوف ، وإنمـا خشية على حسبـه من أن يخـدش ، وعلى دينـه من أن يلوث ، لو خـالف مـا طبع عليه ٠

فكأن حاتما يخـاف على حسبه ودينـه ، حين التردى إلى مـا تردى فيـه المنافقون وصـدق الله تعـالى حين يقول عن المنافقين وقـد أفـرد لهم سـورة تكشف مخازيهم : « **إن المنـافقين فى الدرك الأسـفل من النـار ولن تجـد لهم نصـيرا** »(النساء : ١٤٥) ٠

وبعـد

فقـد بدت مثاليـة حـاتم فى أنصع صورها فكانت ـ فى الحيـاة الجاهليـة ـ بمثابة بدر أضـاء لهم الدياجى ٠

هـذا وبالله التوفيـق ٠

المصـــادر والمراجـع

١ ـ القـرآن الكريم

٢ ـ الأعـلام للزركلى جـ ٢ : ط : بيروت ٠

٣ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (تهذيب الحموى نشر دار التحرير بمصر ٠

٤ ـ البـداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ط : السعادة بمصر ٠

٥ ـ تاريخ الأدب العـربى ـ عمر فروخ جـ ١ ط : بيروت ٠

٦ ـ تاريخ الخميس فى أحوال أنفس ونفيس
حسين الديار بكرى جـ ١ ط : بيروت ٠

٧ ـ تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر (تهذيب عبد القـادر بدران) جـ ٣ ط : بيروت ٠

٨ ـ تفسير الكشـاف للزمخشرى ط : الحلبى ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م

٩ ـ ديوان حـاتم الطائى : ط : آل سام ـ لندن ـ ١٨٧٢ م

١٠ ـ ديوان حـاتم الطائى : ط : ليبزنج ١٨٩٧ م

١١ ـ ديوان حـاتم الطائى : ط : دار صادر بيروت ٠

١٢ ـ ديوان حاتم الطائى : ط٠ دار بيروت ، تقديم كرم البستانى ٠

١٣ ـ ديوان حـاتم الطائى : ط : دار الكتب العلميـة ـ بيروت ٠ تقديم أحمد رشـاد ٠

١٤ ـ ديوان حـاتم الطائى تحقيق د٠ عادل سليمان جمال ٠ نشر مكتبة الخـانجى ٠

١٥ ـ شرح شـواهد المغنى للسيوطى : تعليق الشنقيطى ط : بيروت ٠

١٦ - شرح المعلقات السبع للزوزنى ط : مصر .

١٧ - شعراء الجاهلية (شعراء النصرانية)لويس شيخو . نشر مكتبة الآداب بمصر

١٨ - الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق : أحمد محمد شاكر ط : دار المعارف .

١٩ - مجمع الأمثال للميدانى ط : بيروت .

٢٠ - مجمع الزوائد للهيثمى ج ٩ ط : بيروت .

٢١ - مصحف القادسية المفسر (مختصر تفسير الطبرى) نشر دار القادسية الاسكندرية .

٢٢ - موسوعة الشعر العربى لإيليا حاوى وآخرين ج ١ : ط : الشعب بمصر .